فى المحراب «ديوان»

تأليف الأستاذ محمد عثمان الصمدى

للأستاذ محمد رجب البيومى

منذ أكثر من خمس سنوات قرأت فى مجلة «الكاتب المصرى» قصيدة طويلة تحت عنوان «بين المثالية والطبائع البشرية» وقد راقنى منها وضوح الفكرة، وقوة النسج، ودقة التحليل، فاضطررت إلى تكرارها مرات عديدة حتى علق بذهنى كثير من أبياتها، وأخذت أفتش فى مجلاتنا الأدبية، عن شعر آخر لكاتبها المبدع فلم أوفق إلى شىء، حتى وقع فى يدى منذ أسبوع ديوان «فى المحراب» مبدوءاً بهذه القصيدة الفريدة فأخذت أطالعه فى كثير من الشغف والإعجاب، وشاهدت بين قصائده نظائر عديدة للقصيدة الأولى، فعلمت أن الينبوع الذى ينحدر منه هذا الشعر الجيد، دافق جياش لا ينضب له معين، وأسفت حين علمت أن ديوان «فى المحراب» قد صدر منذ عامين، وسكتت عنه المجلات الأدبية، فلم نقرأ له نقداً فى صحيفة، أو تقريظاً فى مجلة، مع أننا نطالع فى كل يوم كلمات كثيرة تدور حول دواوين ميتة لا تشبع عقلاً ولا تحيى عاطفة، وهكذا يرسب الدر فى قاع المحيط، بينما يتناثر على سطحه الأشلاء والعظام

ومن الخير أن نكشف عن المميزات التى تظهر فى شعر الأستاذ الصمدى واضحة بارزة، وقد يكون أهمها ما نلمسه لدى الشاعر من عمق فى التحليل، وقوة فى التحليق، وجزالة محكمة رصينة، !! وتلك هى الأركان الثلاثة التى ارتقت بديوانه إلى منزلة سامقة تشرفه وتعليه، ومما يزيد فى قيمتها الأدبية أنها تطرد فى سياق واحد، فلا تتخلف ميزة عن أختيها، فى قصيدة من قصائد الديوان، بل تظهر ثلاثتها متجاورات متآخيات !!

وإذا كان الشاعر فى جميع قصائده متشائماً متضايقاً، برماً بما حوله من الناس والأحياء، فهذا مما لا يؤخذ عليه فى شىء، لأن لكل إنسان آماله وأحلامه. ومهما أحث السير نحو أهدافه فلن يقرب من مثله وأشواقه، وهنا تكون الحسرة الموحية بالتشاؤم والقلق لدى أكثر الشعراء، وقد يكون الحظ التعس مولعاً ببعضهم فيقف له بالمرصاد، ينغص عيشه، ويكدر حياته، وينقله من الخفض الناعم، إلى الجدب الموحش ويجسم له أشجانه فتصبح أشباحاً قائمة، تطوف أمامه موترة بالسواد، وتظل طيلة ليله عابرة أمام عينيه، تشرد نومه، وتهيج بلابله، !! وصاحب الديوان أحد هؤلاء الرازحين فى ليل من البلابل والشجون، وتظهر ميزته الأولى فى دقة التحليل وعمق الاستقصاء، حين يتحدث عن أشجانه ورزاياه !! فيصف لك الهم الذى ينصب فى صدره مولولا، ويسمعك الصخب المائج بين الضلوع فى ظلمة الليل وقد سكنت حركة الأحياء والأشياء، ويريك الأشباح المتواكبة أمامه، وقد ملأت مسامعه بالزمازم والرعود، وأسلمته إلى الذكريات البعيدة والقريبة فبعيدها ضعيف الجرس، حار الأنة، وقريبها صاخب ملحاح شديد اللوعة والغرام، والشاعر فى حيرة مقلقة بين القريب والبعيد، ولن تقف هذه الحيرة أمام شاعريته، بل أفسحت له مجال الوصف والتحليل فاندفع يقول

يلف الدجى منى مراح بلابل ... ومثوى شجون لا تريم جثوم
لها صخب خلف الضلوع مبعثر ... فمن ناعب يذكى الأسى وبنوم
كأنى ناى فى يد الليل جائش ... بما فى الورى من رائح ودميم
إذا أذهب الليل الحياة أعادها ... قيامى على أعبائهـا ولزومى
ألا شد ما أوقرت نفسى بفادح ... أنوء به تحت الظلام جثيم
وأشباح ليل ما تنى فى هتافها ... أذنت لها من بعد طول وجوم
ففى الشرق منها هاتف بزمازم ... وفى الغرب منها هاتف بهزيم
وطوراً يشق الليل داع مرزأ ... بصوت من البعد السحيق سقيم
له أنة حرى على ضعف جرسها ... كأنة مصدوع الفؤاد كليم
وتصخب طوراً حين أصغى لهامساً ... فأمسى كأنى فى مناحة بوم
من الطارق الملحاح بابى، وفكرى ... يد فى الدجى ألوت بكل نؤوم

وكثير من الناس يسهرون الليل ساهمين محزونين يفكرون فى حظوظهم العاثرة، وسيجدون صورة ما يتقادم من الشجن والرعب فى هذه الأبيات، ونظائرها من الديوان، وكم للنفس

من خلوة رهيبة ، تكتنفها الوحشة ، وترتمد لهـا الفرائص الصلاب ، ولا فرق بين السير فى غابة رهيبة نائيـة ، وبين التسرب فى أعماق السجون ، وتذكر المصائب والويلات ، والحزين من هواجسه فى مأسدة عالية الزئير ، مرتفعة الصياح ، فليس عجبا أن يسمع الشاعر فى وحدته الساكنة ، مناحة البوم ، ورنين الأنات ، ويرى تواثب الأشباح أسرابا خلف أسراب !

وقد استعان الأستاذ الصمدى بخياله الجامح الطائر ، فنظم ملحمة طويلة يصف بها يوم البعث كما ينطبع فى مخيلته ، ولم يشأ أن يصور حلقات سريعة لما يتخيله من الحوادث والوقائع فحسب ، بل أراد أن يبرز فلسفته فى الحيـاة والناس فى جـو من الإيحاء والإبهام ، ولم يفارقه تشاؤمه المرير قيد لحظة ، بل ظل يطفر بين سطوره من بيت إلى بيت دون أن يخلد إلى الراحة والاطمئنان ، بل إن الملحمة تدور حوله رائحة غادية !! فحين نفخ إسرافيل فى الصور ، ونهضت الرمم البالية من الأجداث ، وهبت هبوب الدبا فوق المروج والأعشاب ، ودبت الحياة على الأرض من جديد ، حين كان ذلك ، فزعت الملائكة فى السماء ، وجعلوا يتساءلون عن هـذا البعث فى قلق وإشفاق ؟ كيف حان على غير أهبة ؟ وما مصيره وعقباه ؟ ولأى غاية كان ؟ !! ولجأوا إلى إسرافيل يستفسرون عما صنع من جليل الخطوب حين نقر فى الناقور ، وقد توجسوا الشر إذ أنذرهم ببعث الآدميين من جديد ، وظنوا الأظانين بأبناء حواء ، واندفعوا يقولون فى حسرة وإشفاق

رويدا ملاك الصور ماذا تقوله   أهبوا على الطبع القديم المدابر

أذن سوف ينضون السلاح كعهدهم   فلايا على الأخرى فلاب المناور

فلن يجنحوا للسلم والطبع قائد   يجاذبهم حرص النفوس الفرائر

غرائز غشت تحتها مشرق الحجى   ورانت على الأبصار فوق البصائر

وليس الحجى كالطبائع فيهم مؤصلا   ولكنه للمرء إحدى المفاخر

مضى الناس طرا ما ألموا بقدسه   سوى نفر منهم قلال عباقر

وسائرهم أسرى الغرائز خطهم   عليهن من مأثوره ـ حظ ناجر

وهذه النظرة الجاحدة للانسان نجد ما يبررها لدى الشاعر من واقع عيشه ، وظروف حيـاته ، فقد نازعه بعض الموسرين منازعة قضائية ، واغتصبوا منه ظلمـا مالا يجوز أن يقربوه فى شئ ، والتبس الأمر على القضاء فأيدهم بسلطان القانون ، ولم يجد الشاعر غير القريض ينفس به من ذات صدره ، ويبثه تباريحه ومواجعه ، فامتلأ ديوانه بهذه القذائف الصائبات

وقد وفق الأستاذ الصمدى فى ملحمته هذه توفيقا جيدا ، فبرزت ميزته الثانية فى التحليق مع الخيال إلى القمم والأجواز ، فلم يبرز يوم البعث ، دون مقدمة تمهد له وتؤذن به ، فالأثير يدوى بأصداء خفاف عوابر ، والأفق موحش يتجاوب فيه الصدى تجاوبا مرهوبا ، والسـكون الشامل يدفع الأحشـاء إلى حركة تؤذن بالانفجار ، والأثير يتجاوز الخفق — بعد قليل — إلى الزمجرة والقصف ، والضبـاب يتدجى على الثرى فى تكاثف والتحـام ، والدخان يتنقل مع الريح كالدخان المتصاعد من المباخر المالبات ... والسحاب والسديم والبحار تأخذ فى مرآة الشاعر صورا مهتـاجة فزعة ... نجد هذا كله حين تنصت إلى قوله فى مقدمة ملحمته الجيدة

أذنت إلى خفق الأثير وقد هفا   يدوى بأصداء خفـاف عوابر

والأفق حولى وحشة أولت الصدى   ...

وضوح شـهاب عابر فى الدياجر

سكون تكاد النفس توجس خلفه   حشـا مستفزا بانفجار مخـامر

على صفحتيه ما يرى نبض منذر   كنبض سراج فى السموات ساهر

لآنست إرهاصا لأمر مروع   وراء أسـارير الأثير المواثر

فلو أن مذياعا يبين ما انطوى   عليه لأجلى موجه عن زماجر

وما هى إلا أن تدجى على الثرى   ضباب إلى غيم على الأفق سائر

وصمدت الأرض الغبـار كأنه   على الريح مذرورا دخان المباخر

هنا السديم قد ذرت ، هنا السحب بعثرت

هنا طائر يتزو إلى جنب طائر

وتمضى القصيدة إلى نهايتها فى هذا السياق الرصين !!

والقارئ يغتبط كثيرا لتآخى الجزالة الرصينة مع الخيـال السابح الحالق ، فى شعر الأستاذ الصمدى ، إذ أن التزام الجزالة يصرف الشاعر غالبا من سبحاته النائية ، ومهامهه الشاسعة ، ونحن نرى عشاق التحليق والطيران من الشعراء يسرعون إلى مطارحهم النائية ، ويرتقون إلى أجوازهم العالية فى أسلوب لا يرضى عشاق الرصانة والأسر ، فالتعبير مفكك غير متماسك ، والتركيب مضطرب فاتر ، واقرأ ما لدينا من الشعر الحديث فى الملاحم والأساطير ، فلن تجد للرصانة أثرا يرضيك ، بل إنها فى مذهب أصحاب الملاحم ضرب عتيق من التقليد الملظ الذى يتعذر

أن يجد سوقه الرائجة فى هذا الأفق الطليق ، وقد دفعهم إلى هذا الانهام القاسى ما يجدونه — غالبا … لدى أنصار الجزالة من ضيق فى الثقافة والخيال والتحليل ، إذ أن قصائدهم — فى الأكثر — تضطرب فى نطاق ضئيل من المعانى المتوارثة الشائعة — وإذا جنحوا إلى الابتكار الشائق فلا يتجاوزون حدود الاستعارة والتشبيه ، مما يتعلق بالبيت أو البيتين ، لا أن يعم الابتكار فكرة القصيدة ، وأغراضها وأوزانها ، فتكون له الدقة والطرافة والتوثب ، وقصيدة الشاعر عن يوم البعث محاولة طيبة لتقريب الشقة بين المذهبين المختلفين ، وإن كنا ندعو الأستاذ الصمدى إلى التخلص قليلا من بهارجه اللغوية ، التى تبرز بوضوح فى صفحات ديوانه . فقارئ الشعر لا يصبر على مراجعة الهوامش كقارئ المنطق والفلسفة ، ولكنه يريد فاكهة عذبة مريحة ، يلمس فى يديه نعومتها الشفافة ، ويرى بعينيه صورتها الخلابة ، ويذوق بفمه حلاوتها المشتهاة ، وهذا ما تحول دونه ألفاظ المعاجم ، فى بعض الأحايين ، ومعاذ الأدب أن يفهم القارىء من هذا الرأى أننا نتنكر للجزالة والأسر ، بل نسير معهما إلى أبعد شوط وأقصاه ، ولكننا لا نراهما فى حاجة إلى الألفاظ الغريبة عن السمع والعين والفؤاد ، وأكثر ما لدينا من شعر الديوان سائغ رائق ، قد خلص من الغرابة والإيحاش

وقد لاحظت أن الشاعر — أقر أم لم يقر — متأثر فى بعض قصائده بشاعرية الأستاذ العقاد ، فقد أخذ عنه حبه للتعليل والتدقيق ، ورغبته فى جدله العقلى المترف الذى يندس إلى أغوار الحياة ، فيجد فيها مادة للتفلسف والمقارنة ، وهذا لا يعيب الشعر فى شئ — كما يرى الساخرون — ما دام ملموسا واضحا أمام الذهن البصير ، بل يرفعه إلى مستوى شامخ تتواثب فيه العواطف والعقول ، وقد ظهر فى هذا التأثر فى كثير من قصائد الديوان ، كنجوى الأمل ، وعلى رفات البشرية ، والله والوجود ، وإن لم يلحق الصمدى بأستاذه العقاد فى الدقة والصدق والإقناع ، بل وقف منه عن كثب يطارحه ويحاكيه ، واقرأ دعوة الشاعر إلى خداع النفس ، والهروب من الحقائق ، وتناسى الواقع ، لتلمس الشواهد الدالة على ما ندعيه فى مثل قوله

قد ضقت بالحق الصراح فمن لنفسى بالمراء
والعيش عبء فادح إن لم يموه بالطلاء
أحبب بآلك لامعا عندى وإن لم ألق ماء
إن كدت لم تنقع صدى فسواك يغرى بالظماء
حسبى بأنك مالىء عينى سحرا بالرواء
يا أيها الأمل المنمق من أفانين الغباء
إنى لقيت بك السعادة وهى حظ الأغبياء
لو أن لى لبا لما آنست فى أفق هباء
أنا لو وثقت بظلها فعليك يا عقل العفاء

هذا ، وقد عاش الشاعر فى الريف فخصه بكثير من خواطره ، فهو يصف طبيعته الفاتنة وسحبه وبروقه وغمائمه ، ويشارك أهله ما يجدون من عواطف وأحاسيس ، فيرثى أقطابه وذوى الوجاهة فيه ، ويرسم ألواحا بديعة للجمال المشترك الوزع بين المروج والحسان والغدران ، مما يزين جوانب الريف ويجلو حنادسه المتراكمات ، وتعجبنى نظراته الاجتماعية الصادقة ، وخلجاته الإنسانية التى التمت متوهجة فى آخر قصيدة « من صور الريف » فهو يحدثك عن تعس العقل وشقائه ، حين لا يجد بدا من الخضوع للأوهام والأضاليل ، بعد أن كابد الداء العضال وأعوزه الشفاء من طريقه الطبيعى للعلاج ، فيلجأ إلى التمائم والرقى والتعاويذ ، على يد أناس جهلة تماسيح !! راميا بآخر سهم فى كنانته ، وذلك قصارى ما يستطيع !!

وجاء شيوخ الحى والكل ناهض بإبلاله من دائه المتفاقم
وقالوا عليه بالسحر لكأنها أبو دليوث ساء طب الضراغم
ومسوا بأيديهم يديه وأقبلوا يلوكون بالأفواه رجع المهاهم
وقال كبير القوم خذ هذه الرقى فنطها على اسم الله فوق الجماجم
ونطت بأعلاه ، التمائم والرقى على سوء ظنى فى الرقى والتمائم
ورب فتى لم يعصم العلم نفسه فباق بها ضعفا إلى غير عاصم

ولهذه الوثبات الرائعة نظائر متناثرة فى صفحات الديوان ، وقد يجمح بنا اليراع إذا تناولناها ببعض التشخيص فى هذا النطاق الضيق المحدود !!

ولعلى بهذا العرض السريع ، لأبرز عناصر الديوان ، ألفت كثيرا من القراء إلى الاطلاع عليه وتقديره ، وقد يكون إعجابى به دافعا إلى التغاضى عن بعض هناته الطفيفة ، فعين الرضا عن كل